توجيه فهم النص القرآني
عند المفسرين

د. حمزة حسن سليمان
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك ، بالجامعة ،
رئيس قسم التأليف والتنسيق والبرامج
بعمادة البحث العلمي والتأليف والنشر بالجامعة

2015م

مقدمـة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، تبصرة وذكرى لأولى الألباب، وجعل الحمد فاتحة أسراره، وخاتمة تصاريفه وأقداره، ونصلى ونسلم على أكرم خلقه، وخاتم رسله محمد ﷺ، الذي أرسله الله بالقرآن، فدعا به إلى الله على بصيرة، فكان سبباً في هداية الناس إلى الطريق المستقيم، والمنهج القويم، ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:115].

فالقرآن الكريم، كتاب الله الخالد، ومعجزة رسوله محمد ﷺ، التي لا تفنى إلى الأبد، وهو كتاب منتظم الآيات، متعاضد الكلمات، لا نفور فيه ولا تعارض، ولا تضاد ولا تناقض، صدق كلها أخباره، عدل كلها أحكامه، وصدق الله إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:82].

وممّا لا شك فيه أنّ علوم القرآن الكريم، والتّفسير من أشرف العلوم، ذلك أنّ

مرادها التّوصل إلى فهم أشرف كلام وأحسنه على الإطلاق، كلام الخالق جل وعلا إلى عباده وعبيده، ولقد أمرنا سبحانه بتدبّر كتابه فقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: 24]، فكان الاشتغال بذلك من أفضل ما قُضيت فيه الأوقات وفنيت فيه الأعمار، ولما كثرت تفسيرات كتاب الله تعالى بين الناس، وأصبح المسلم في حيرة من أمره، أي هذه التفسيرات أصح، وما الذي عليه أن يتبعه، وقد كانت اختلافات المفسرين لفهمهم لدلالات النّصوص كل حسب ما يتوفر لديه من أدلة، لذلك كان لاختلاف الدلالة في فهم النّص القرآني مغزى كبير في التوصل لمعرفة المقصود من النّص، وأقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النّص وانطباقه، لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه! فالمصلحة متحققة أصلاً بوجود النص، ولمعرفة كل ذلك، كان اختياري لهذا البحث بعنوان: **توجيه فهم النص القرآني.**

أهمية الموضوع:

إذا ألقينا نظرة فاحصة إلى علم وكتب التّفسير، يتبين لنا - وبصورة ظاهرة- وقوع الاختلاف في هذه التفاسير، إذ أنّ وقوع الاختلاف في تفسير كتاب الله عز وجل حقيقة لا ينكرها إلا مكابر أو عديم الإطّلاع على كتب التّفسير، ولمّا كان الأمر كذلك فتَكْمُن أهمية هذا الموضوع في:

1) الوقوف على حقيقة وجود اختلاف بين المفسِّرين في فهمهم للنص القرآني.
2) استنباط دلالات المفهوم النَّصي للمفسِّرين.
3) تأصيل منهجية موحدة للدراسات القرآنية من خلال منهجية موحدة لتفسير القرآن.

4) الاهتمام بمقاصد القرآن وكلياته، والحرص على استلهام إيحاءاته وتوجيهاته.

5) الغوص في المعاني القرآنية - غير المحددة -لاكتشاف الكنوز المخبوءة طي الكلمات.

أسباب اختيار الموضوع:

نظراً لكثرة تفاسير القرآن الكريم بصورة لافتة للنظر، الأمر الذي أدى إلى ضرورة تحري الدقة والأخذ من المصادر الأصيلة للتّفسير كان اختياري لهذا الموضوع للأسباب الآتية:

1/ اختلاف كثير من المفسِّرين في نصوص القرآن الكريم وأثر ذلك على فهم المتلقي.

2/ الوقوف على دلالة ومقاصد القرآن الكريم من خلال اجتهادات المفسِّرين.

3/ تحري دلالات النّصوص القرآنية التي تؤدي للفهم الصحيح لكلام الله تعالى.

محاور البحث: اشتمل البحث على المحاور الآتية:

المبحث الأول: علم فن التوجيه:

المطلب الأول: معنى التوجيه في اللغة والاصطلاح

أولاً: معنى التوجيه في اللغة

ثانياً: معنى التوجيه في الاصطلاح

المطلب الثاني: مترادفات التوجيه

أولاً: التورية

ثانياً: الإبهام

ثالثاً:الكناية

رابعاً: التعريض

المبحث الثاني: توجيه الخلافات بين المفسِّرين

المطلب الأول: المشكلات العامة في القرآن الكريم

المطلب الثاني: توجيه التقديم والتأخير

المطلب الثالث: توجيه احتمال الكلام لأكثر من معنى

المطلب الرابع: التوجيه باختلاف القراءة

الخاتمة: وتشمل النتائج والتوصيات

فهرس المصادر والمراجع

المبحث الأول
علم فن التوجيه

المطلب الأول: معنى التوجيه في اللغة والاصطلاح:

أولاً: معنى التوجيه في اللغة:

ورد مفهوم التوجيه في اللّغة في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير بقوله: " وجه بالضم: وجاهة فهو وجيه، إذا كان له حظ ورتبة، والوجه مستقبل كل شيء، وربما عبّر بالوجه عن الذات، ويقال واجهته إذا استقبلت وجهه بوجهك، ووجهت الشيء جعلته على جهة واحدة، ووجهته إلى القبلة فتوجه إليها، والوجهة بكسر الواو قيل مثل الوجه، وقيل كل مكان استقبلته، وتحذف الواو فيقال جهة، وهو أحسن القوم وجهاً، قيل معناه أحسنهم حالاً، لأن حسن الظاهر يدل على حسن الباطن "[1].

وأورد صاحب المغرب في ترتيب المعرب قوله تعالى: ﴿ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:115] ، أي جهته التي أمر بها الله تعالى ورضيها، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنها نزلت في الصلاة على الراحلة وعن عطاء في اشتباه القبلة، وقال ﷺ:« إذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أقرؤهم لكتاب الله تعالى، فإن كانوا في القراءة سواء فأكبرهم سناً، فإن كانوا في السن سواء فأحسنهم وجهاً »[2]، قيل معناه أحسنهم خبرة، لأن حسن الظاهر يستدل به على حسن الباطن " [3].

ثانياً: معنى التوجيه في الاصطلاح:

وتعريف التوجيه في الاصطلاح كما جاء في خزانة الأدب وغاية الأرب: " والتوجيه في الاصطلاح أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً من غير تقييد بمدح أو غيره، والتوجيه هو إبهام المتقدمين، لأن الاصطلاح فيهما واحد، غير أنّ الشواهد التي استشهدوا بها على التوجيه الإبهام أحق بها، لطلوع أهلتها

---

(1) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير-أحمد بن محمد بن علي الفيومي، أبو العباس-المكتبة العلمية،بيروت- ج10/ص 269

(2) سنن البيهقي الكبرى- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي: مكتبة دار الباز- مكة المكرمة:1414هـ – 1994م. باب يؤمهم أحسنهم وجهاً – ج3 /ص 121 - رقم: 5082

(3) المغرب في ترتيب المعرب - أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيدين علي بن المطرز- مكتبة أسامة بن زيد- حلب-ط1، 1979-تح: محمود فاخوري و عبد الحميد مختار- ج 5 / ض320

زاهرة في أفقه ولمطابقة التسمية " [1].

وجاء في الإيضاح في علوم البلاغة: " التوجيه: إيراد الكلام محتملاً لوجهين مختلفين، وأضاف صاحب العين: وإيراد الكلام على وجه يندفع به كلام الخصم، وقيل عبارة على وجه ينافي كلام الخصم، وعليه قوله تعالى: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا ﴾ [النساء: 46]" [2]، قال الزمخشري: " غير مسمع حال من المخاطب، أي اسمع وأنت غير مسمع، وهو قول ذو وجهين يحتمل الذم، أي اسمع منا مدعواً عليك بلا سمعت، لأنّه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع، فكان أصم غير مسمع، قالوا ذلك اتكالاً على أنّ قولهم لا سمعت دعوة مستجابة، أو اسمع غير مجاب ما تدعوا إليه، ومعناه غير مسمع جواباً يوافقك فكأنك لم تسمع شيئاً"[3].

وقال صاحب الخلاصة في علوم البلاغة في تعريفه للتوجيه: " التوجيه: هو أنْ يؤتَى بكلامٍ يحتملُ معنيينِ متضادينِ على السواءِ، كهجاءِ، ومديحِ، ودعاءٍ للمخاطبِ، أو دعاء عليه، ليبلغَ القائلُ غرضَه بما لا يمسكُ عليه،كقول بشار بن برد في خياط أعور اسمه عمرو[4]:

خَاطَ لي عمروٌ قباءْ * * ليتَ عينَيْهِ سواءْ

قل لمن يسمع هذا * * أمديح ذا أم هجاء

فإنَّ دعاءه لا يعلمُ، هل له أم عليه؟" [5]، وجاء في بهجة المجالس وأنس

(1) خزانة الأدب وغاية الأرب- تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري- دار ومكتبة الهلال - بيروت-ط1، 1987- تح: عصام شعيتو- ج1 / ص 302

(2) التعريفات- علي بن محمد بن علي الجرجاني: دار الكتاب العربي- بيروت- تح: إبراهيم الأبياري- ط 1- 1405هـ،ج1/ص96

(3) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري- دار الكتاب العربي - بيروت: 1407 هـ - ج 1 / ص 415

(4) ونسب صاحب كتاب دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين هذا الشعر للإمام الشافعي رحمة الله عليه، والأغلب أنه لبشار بن برد كما جاء في: الخلاصة في علوم البلاغة- ج1/ ص73، والموسوعة العربية، ومصادر أخرى.

(5) الخلاصة في علوم البلاغة - ج1 / ص73

المجالس ذِكر قصة هذا الشعر بقوله: " قال رجل خياط أعور لبعض الشعراء: والله لأخيطن لك قباء لا تدري أقباءٌ هو أم دوّاج [1]، فقال: وأنا والله أقول فيك شعراً، لا تدري أمدح هو أم هجاء، فلما خاطه له قال فيه ما قال " [2].

وقال الزركشي في البرهان في علوم القرآن: " وأما التوجيه وهو ما احتمل معنيين ويؤتى به عند فطنة المخاطب، كقوله تعالى حكاية عن أخت موسى عليه السلام: ﴿ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص:12]، فإن الضمير في له يحتمل أن يكون لموسى وأن يكون لفرعون، قال ابن جريج: وبهذا تخلصت أخت موسى من قولهم: إنك عرفته فقالت: أردت ناصحون للملك، واعترض عليه بأنّ هذا في لغة العرب لا في كلامها المحكي، وهذا مردود فإنّ الحكاية مطابقة لما قالته وإن كانت بلغة أخرى، ونظيره جواب ابن الجوزي لمن قال له: من كان أفضل عند النبي ﷺ أبو بكر أم علي؟ فقال: من كانت ابنته تحته[3].

وعلى هذا فالتوجيه عند المفسِّرين أخص من التوجيه عند البلاغيين، كما أورده الباحث في علوم القرآن: عبد السلام مقبل، إذ هو عند المفسِّرين: " بيان وجه الكلام الخفي المشكل ، أمَّا عند البلاغيين فهو: احتمال الكلام لوجهين مختلفين، ويمكن تحديد تعريفه الاصطلاحي:بأنَّه يُراد به أحد معنيين في استعمال المفسِّرين:

الأول: بيان وجه الكلام الظاهر، أي معناه المباشر.

الثاني: التماس وجه الكلام الخفي، أو التعليل لما يظهر فيه من إشكال.

فالعلاقة بين التعريف اللُّغوي، والاصطلاحي: التماس وجهة الكلام ببيان معناه، وحيثية هذا المعنى دون غيره مع احتماله له" [4]، وهو ما استقر عليه استعمال المفسِّرين في كتبهم، وهو التعريف الذي اعتمدته في البحث.

فأمَّا المعنى الأول فهو مرادفٌ للتفسير كقول ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿

(1) الدواج: ضرب من الثياب قال ابن دريد لا احسبه عربياً صحيحاً، وقال في المعجم :هو معطف غليظ: (المحكم والمحيط الأعظم -ج7/ 534)،(المعجم الوسيط-ج1/ص302)

(2) بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس- لأبي عمرو يوسف بن عبد البر النمري القرطبي- دار الجيل للطباعة- مصر:1962م- تحقيق: محمد مرسي الخولي - ج1 / ص 116

(3) البرهان في علوم القرآن- محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله- دار المعرفة- بيروت: 1391هـ.ج2/ ص314

(4) بحث منشور بعنوان: فن التوجيه عند المفسرين- عبد السلام مقبل المجيدي- مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية - العدد 16- ذو الحجة 1430هـ (ديسمبر 2008م)

فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا ﴾ [القصص:35]، " أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله،كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة: 67]، وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب:39]... ولهذا أخبرهما أنَّ العاقبة لهما ولمن اتبعهما في الدنيا والآخرة، فقال عز وجل :﴿ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص: 35]،كما قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة:21] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: 51]. ووجَّه ابن جرير على أنَّ المعنى: " ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما، ثم يبتدىء فيقول: ﴿ بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص: 35]، تقديره: أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا. ولا شَكَّ أنَّ هذا المعنى صحيح، وهو حاصلٌ من التوجيه الأول فلا حاجة إلى هذا " [1].

وأمَّا المعنى الثاني: " فهو المقصود بالتوجيه عند الإطلاق، والمقصود منه البحث عن مغزى الكلام الذي أثار إشكالاً في ذهن السامع، كما جاء في الفوز الكبير: " فإذا حلَّ المفسِّر هذا الإشكال، سمي ذلك الحلّ: توجيهاً " [2].

المطلب الثاني: مترادفات التوجيه:

أولاً: التورية:

عرفت التورية في إعراب القرآن وبيانه: " هي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان: قريب ظاهر غير مراد، وبعيد خفي هو المراد " [3].

وجاء تعريفها في تفسير القرطبي بقوله: "التورية هي التعريض بالشيء

(1) تفسير القرآن العظيم- إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء: دار الفكر- بيروت:1401هـ،ج3/ص 516

(2) الفوز الكبير في أصول التَّفسير- ص 198

(3) إعراب القرآن وبيانه- محي الدين الدرويش-دار الإرشاد - سورية-ج4 / ص293

والكتمان لغيره" [1].

وأورد في الدر المصون نفس المعنى وأشار إلى حديث الرسول الكريم ﷺ في الغزو: " « أَنّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ غَزْوًا وَرَّى بِغَيْرِهِ، وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ غَيْرَهَا، وَكَانَ يَقُولُ: الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» [2]، وسُمِّيَت التوراة بذلك لأنَّ أكثَرها تلويحاتٌ ومعاريضُ" [3]، ومثله:" قول أبي بكر رضي الله عنه وقد سئل عن النبي ﷺ حين الهجرة، فقيل له: من هذا؟ فقال: هادٍ يهديني السبيل"[4].

وفي البرهان عن التورية قال: " وتسمى الإيهام والتخييل والمغالطة والتوجيه، وهي أن يتكلم المتكلم بلفظ مشترك بين معنيين: قريب وبعيد ويريد المعنى البعيد يوهم السامع أنه أراد القريب مثاله: قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ [الرحمن: 6]، أراد بالنجم النبات الذي لا ساق له والسامع يتوهم أنه أراد الكوكب لا سيما مع تأكيد الإيهام بذكر الشمس والقمر [5] .

وقد أدخل جماعة نوع التوجيه في التورية وليس منها، والفرق بينهما من وجهين:

" أحدهما: أنّ التورية تكون باللفظة المشتركة، والتوجيه باللفظ المصطلح عليه.

والثاني: أنّ التورية تكون باللفظة الواحدة، والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ

(1) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي - تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- دار الكتب المصرية - القاهرة- الطبعة الثانية: 1384هـ-1964م - ج4 / ص 5

(2) مستخرج أبي عوانة- دار المعرفة- بيروت، الطبعة الأولى، 1419هـ- 1998م- باب الخبر - ج 7 /ص 359- رقم: 5259

(3) الدر المصون في علم الكتاب المكنون- أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي - تحقيق: د. أحمد محمد الخراط- دار القلم- دمشق- الطبعة الأولى: 1406هـ،1986م ج1 / ص 682

(4) التقريب لتفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور- محمد بن إبراهيم الحمد- ج1 /ص 48

(5) البرهان في علوم القرآن - ج3 /ص 445

متلائمة" [1].

وكما جاء في تفسير التحرير والتنوير فإن حال المفسِّر عندما يوجّه الآية كحال الخضر عندما قال لموسى- عليهما السلام: - ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: 70]، وإحداث الذكر معناه "بيان العلل والتوجيهات وكشف الغوامض " [2].

ثانياً: الإبهام:

جاء في خزانة الأدب وغاية الأرب: " الإبهام بباء موحدة، هو أن يقول المتكلم كلاماً مبهماً، يحتمل معنيين متضادين، لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد، بل يقصد إبهام الأمر فيهما، والإبهام مختص بالفنون كالمديح والهجاء وغيرهما ولكن لا يفهم من ألفاظه مدح ولا هجاء بل يكون لفظه صالحاً للأمرين " [3].

وجاء في غريب الحديث قوله: " وسئل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ ﴾ [النساء: 23] " ولم يبين أدخل بها الابن أم لا فقال ابن عباس أبهموا ما أبهم الله " [4].

ورأى الحموي أنَّ التوجيه هو الإبهام عند المتقدّمين، وأنَّ تسميته بـ (الإبهام) أوْلَى، وهذا مذهب ابن أبي الأصبع، فإنَّه هو الذي تخيَّر الإبهام ونزَّل عليه هذه الشواهد، واختصر التوجيه من كتابه، وقد أجمع الناس على أنَّ كتابه المسمى بـ (تحبير التحرير) أصحّ كتابٍ أُلِّفَ في البلاغة، لأنَّه لم يتكِّل فيه على النَّقل دون النَّقد، والسكاكي ومن تبعه سمّوا هذا النوع التوجيه، ونسج الناس على منوالهم إلى أنَّ تخيَّر ابن أبي الأصبع نوع الإبهام، وقرَّر له الشواهد التي هي أليق به من التوجيه"[5].

---

(1) خزانة الأدب وغاية الأرب - تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري-دار ومكتبة الهلال – بيروت- الطبعة الأولى، 1987 -تحقيق : عصام شعيت- ج2 / ص45

(2) التحرير والتنوير- محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ): مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان-الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م-ج15/ص110

(3) خزانة الأدب وغاية الأرب - ج1 / ص 178

(4) غريب الحديث- أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد بن علي إبن عبيدالله بن حمادي بن أحمد بن جعفر - دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى ، 1985-تحقيق : د.عبدالمعطي أمين قلعجي- باب الباء مع الهاء- (94/1)

(5) خزانة الأدب- ج 1/ ص302

وفي مواهب المفتاح:"والظاهر أنَّ الإبهام أعمّ من التوجيه،والتورية،والمشترك بينها خفاء المراد[1].

ثالثاً:الكناية:

جاء تعريف الكناية في المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: " كنيت بكذا عن كذا، من باب رمى، والاسم الكناية: وهي أن يتكلم بشيء يستدل به على المكنى عنه، كالرفث والغائط، والكنية اسم يطلق على الشخص للتعظيم، نحو أبي حفص، وأبي الحسن، أو علامة عليه "[2].

وقال في مختار الصحاح: " الكِنايةُ أن تتكلم بشيء وتريد به غيره، وقد كَنيْتُ بكذا عن كذا، وَكنَوْتُ أيضاً كِنايةً فيهما،ورجل كانٍ وقوم كانُونَ،والكُنْيَةُ بضم الكاف وكسرها واحدة الكُنَى"[3].

وقال السيوطي في الإتقان في علوم القرآن: " إن العرب تعد الكناية من البراعة والبلاغة، وهي عندهم أبلغ من التصريح، وعرفها أهل البيان بأنها لفظ أريد به لازم معناه"[4].

وجاء تعريفها في الموسوعة القرآنية: " هي الدلالة على شيء من غير تصريح باسمه"[5].

وعرف صاحب روض البيان في إعجاز القرآن الكناية، فقال: " هي لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته، نحو: (فلانة بعيدة مهوى القُرط) ومهوى القرط: هو المسافة من شحمة الأذن إلى الكتف، وإذا كانت هذه المسافة بعيدة، لزم أن يكون العنق طويلاً " [6].

رابعاً: التعريض:

قال الجرجاني في التعريفات:" التعريض في الكلام ما يفهم به السامع

(1) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح-ابن يعقوب المغربي-مؤسسة دار البيان،ط 1412/4هـ، 1992م-ج4/ ص322

(2) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: - ج8 / ص 172

(3) مختار الصحاح-محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي-تحقيق :محمود خاطر: مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، 1415- 1995-ج1/ص 586

(4) الإتقان في علوم القرآن- جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، دار النشر: دار الفكر - لبنان - 1416هـ- 1996م ، الطبعة الأولى، تحقيق : سعيد المندوب- ج2/ص128

(5) الموسوعة القرآنية - ج1/ص1096

(6) روض البيان في إعجاز القرآن- فهد بن عبد الله الحزمي - ج1 / ص5

مراده من غير تصريح"[1].

وقال شارح حدود ابن عرفة: " التعريض: هو ما دل عليه بقرينة بينة، وهو لفظ دال على معنى لا من جهة احتمال الحقيقة أو المجاز، بل فهم ذلك وقصد من جهة التلويح والإشارة"[2].

وجاء في البحث العروضي والبلاغي في لسان العرب: " التعْرِيضُ: خلاف التصريح، والمَعارِيضُ: التَّوْرِيةُ بالشيء عن الشيء، وفي المثل، وهو حديث مخرّج عن عمران بن حصين، مرفوع: « إِنَّ في المَعاريضِ لَمَنْدُوحةً عن الكذب » [3] ، أَي سَعةً، والمَعارِيضُ جمع مِعْراضٍ من التعريضِ، وفي حديث عمر رضي الله عنه: أَمَا في المَعارِيض ما يُغْني المسلم عن الكذب؟ " [4].

ومن تصريفات التعريض، المعراض وهو كما جاء في معاني القرآن للفراء: "المعراض: التورية، يقال: عرفته في معراض كلامه، وفى لحن كلامه، وفحوى كلامه بمعنى كما في المصباح "[5].

وبعد أن وقفنا على معاني الكناية والتعريض، وللتشابه الواضح في معانيهما ندلف لتوضيح الفرق بينهما، فقد أوضح صاحب كتاب المغرب في ترتيب المعرب الفرق بين التعريض والكناية بقوله: " إنّ التعريض تضمين الكلام دلالة ليس لها فيه ذكر، كقولك ما أقبح البخل، تعريض بأنه بخيل، والكناية ذكر الرديف وإرادة المردوف، كقولك فلان طويل النجاد، وكثير رماد القدر، يعني أنه طويل القامة ومضياف"[6]، ومنه قول الخنساء في رثاء أخيها:

طَوِيلُ الْنِّجَادِ رَفِيعُ الْعِمَادِ * * كَثِيرُ الرَّمَادِ إِذَا مَا شَتَى

وجاء في ري الظمآن في بيان القرآن في معرض تفريقه بين الكناية والتعريض قوله: " إن الكناية واقعة في المجاز - على قول البعض - بخلاف التعريض فلا يعد منه، وذلك لأن التعريض مفهوم من جهة القرينة فلا تعلق له باللفظ لا من جهة حقيقته ولا من جهة مجازه، وأن التعريض أخفى من الكناية، لأن دلالة الكناية مدلول

(1) التعريفات- علي بن محمد بن علي الجرجاني-تحقيق:إبراهيم الأبياري:دار الكتاب العربي- بيروت-الطبعة الأولى، 1405-ج1/ص85

(2) شرح حدود ابن عرفة - محمد بن قاسم الأنصاري، أبو عبد الله، الرصاع- ج3 / ص 13

(3) السنن الكبرى-أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي-الطبعة الأولى- 1344هـ-باب المعاريض- ج10/ص199-رقم: 21364

(4) البحث العروضي والبلاغي في لسان العرب: مع معجم بمصطلحات العروض والبلاغة - ج1 / ص 173

(5) معاني القرآن- أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء: دار المصرية للتأليف والترجمة-مكان الطبع : مصر- ج 2 /ص 388

(6) المغرب في ترتيب المعرب - ج3 /ص 446

عليها من جهة اللفظ بطريق المجاز بخلاف التعريض فإنما دلالته من جهة القرينة والإشارة " [1].

وقال القطّان في مباحث في علوم القرآن: " وإذا كنت في الكناية تذكر اللفظ وتريد لازم معناه، فإنك في التعريض تذكر اللفظ وتلوح به إلى ما ليس من معناه " [2].

وليست هذه هي كل مترادفات التوجيه وإنما الذي ذكرناه هو الأشبه بالتوجيه، وإلا فإن هناك مترادفات كثيرة نذكر طرفاً منها، قال السيوطي في الإتقان: " من أنواع البديع التي تشبه الكناية، الإرداف: وهو أن يريد المتكلم معنى ولا يعبر عنه بلفظه الموضوع له "[3]، وكما جاء في البرهان لعلوم القرآن في تعريفه للتورية بأنها تسمى الإيهام والتخييل والمغالطة، فوضح أنّ هذه كلها مترادفات التورية التي هي مرادفة للتوجيه.

(1) ري الظمآن في بيان القرآن - ج1 / ص 10
(2) مباحث في علوم القرآن- مناع القطان- مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الطبعة الثالثة 1421هـ - 2000م
(3) الإتقان في علوم القرآن - ج2 / ص 131

المبحث الثاني
توجيه الخلافات بين المفسِّرين

المطلب الأول: توجيه المتشابه فهمه من الآيات:

لما كان التوجيه علم من العلوم التي يتوصل بها إلى معرفة حقيقة المتون والنصوص المبهمة،كل حسب فهمه، واستنباطه من النص، فإن القرآن الكريم حثّ وباستمرار لإعمال العقل في استنباط وفهم المسائل المستعصية على الفهم، لذلك جاء في العون الكبير في أصول التَّفسير قوله: " التوجيه: فن كثير الشعب يستعمله الشُّراح في شرح المتون، ويحصل به امتحان ذكائهم، ويظهر به تباين مراتبهم" [1]، بل لو نظر الباحث في الدائرة التي تحتاج إلى التوجيه، لوجدها تتسع لجميع المسائل التي تحتاج إلى حل، فدخل في هذه الدَّائرة: مشكلات الفهم العامة، والتضمين، والحذف، والإبدال، والتقديم، والتأخير، والمتشابه، ولكن ذلك يختلف بحسب ذهن الباحث أو الموجّه.

ومن الأمثلة الدقيقة التي توضح أنَّ التوجيه يختلف بحسب الأفهام: قوله تعالى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ [الحج:12، 13]، فقد ذكر البغوي: " أنَّ هذه الآية من مشكلات القرآن وفيها أسئلة: أولها: قال الله في الآية الأولى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ ، وقال في الثانية: ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ ﴾فكيف التوفيق بينهما؟ قيل قوله في الآية الأولى: ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ ﴾ أي: لا يضره ترك عبادته، وقوله:﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ ﴾ أي: ضر عبادته، فإن قيل: قد قال: ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ﴾ولا نفع في عبادة الصنم أصلاً؟ قيل: هذا على عادة العرب، فإنهم يقولون لما لا يكون أصلاً بعيد، كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق:3]، أي: لا رجع أصلاً فلما كان نفع الصنم بعيداً، على معنى: أنّه لا نفع فيه أصلاً قيل: ضره أقرب، لأنَّ الضَّرر كائنٌ للعابد بسبب هذه العبادة الباطلة، والنَّفع

(1) العون الكبير في أصول التَّفسير، ص 299

أبعد، لأنَّه لا نفع فيه أصلاً، على طريقة الكلام العربي الفصيح"[1].

ووجَّه الزمخشري ذلك بأنَّ الآية الثانية تحدثت عن حال الكافر يوم القيامة، حيث يتضرَّر الكافر بعبادته للصنم، فقال: " الضَّرر والنَّفع منفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين، وهذا تناقض؟ قلت: إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم، وذلك أنَّ الله تعالى سفَّه الكافر بأنَّه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً، وهو يعتقد فيه - بجهله وضلاله - أنَّه يستنفع به حين يستشفع به، ثم قال: يوم القيامة يقول هذا الكافر بدعاء وصراخ حين يرى استضراره بالأصنام، ودخوله النار بعبادتها، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادّعاها لها: ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴾ أو كرَّر يدعو كأنَّه قال: يدعو من دون الله ما لا يضرّه وما لا ينفعه، ثم قال: لمن ضرّه بكونه معبوداً أقرب من نفعه بكونه شفيعاً لبئس المولى..."[2].

وقال ابن الجوزي في زاد المسير: " قال بعضهم: اللام صلة، والمعنى: يدعو مَن ضره، وحكى الزجاج عن البصريين والكوفيين أنّ اللام معناها التأخير، والمعنى: يدعو مَنْ لضرّه ﴿ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ ، قال: وشرح هذا أنّ اللام لليمين والتوكيد، فحقُّها أن تكون أول الكلام، فقدِّمت لتجعل في حقِّها، قال السدّي: ضره في الآخرة بعبادته إياه أقربُ من نفعه، فإن قيل: فهل للنفع من عبادة الصنم وجه؟ فالجواب: أنّه لا نفع من قِبَلِه أصلاً، غير أنه جاء على لغة العرب، وهم يقولون في الشيء الذي لا يكون: هذا بعيد"[3].

أما ابن تيمية فقد كان توجيهه: " بأنَّ الإضرار المثبت المضاف إلى المعبود الباطل غير الإضرار المنفي عنه، فالإضرار المنفي هو فعل الضرر وإحداثه بالعابد، أمَّا المثبت فهو تسبُّب عبادة المعبود في وقوع الضرر بالعابد في الدنيا والآخرة، فقول الله تعالى: ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ هو نفيٌ لكون المدعو المعبود من دون الله لا يملك نفعاً أو ضراً، وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة، والبشر، والجن، والكواكب، والأوثان كلها، فإنَّ ما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً، وقوله: ﴿ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ نفيٌ

(1) معالم التنزيل - للبغوي: ج5 /ص 365
(2) الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- ج3/ص27
(3) زاد المسير في علم التفسير - ج4 /ص 372

عام، فهو لا يقدر أنْ يضر أحداً سواء عبده أو لم يعبده، ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبده، وإذا كان كذلك فنقول المنفي بقوله: ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ﴾ هو قدرة من سواه على الضّر والنَّفع.

وأمَّا المثبت بقوله: ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ هو تسبُّب المعبود الباطل في إحداث الضرر بعابده، إذ إنَّ قوله: ﴿ ضَرُّهُۥٓ ﴾ اسم مضاف إليه، فإنَّه لم يقل:يضر أعظم مما ينفع، بل قال: ﴿ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ﴾ ، والشيء يضاف إلى الشيء بأدنى ملابسة، فلا يجب أن يكون الضّر والنَّفع المُضافانِ من باب إضافة المصدر إلى الفاعل، بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسماً، كما تضاف سائر الأسماء، وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه،وسبب حدوثه، وإن لم يكن فاعلاً، كقوله: ﴿ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ ، ولا ريب أنَّ بين المعبود من دون الله، وبين ضرر عابديه تعلُّق يقتضى الإضافة،كأنَّه قيل لمن شره أقرب من خيره، وخسارته أقرب من ربحه، فتدبَّر هذا، فأضيف الضّر إلى المعبود الباطل، لأنَّه سبب فيه، لا لأنَّه هو الذي فعل الضّرر، وهذا كقول الخليل عن الأصنام: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم:36] ، فنسب الإضلال إليهن، والإضلال هو ضرر لمن أضللنه، وهذا كما يقال: أهلك النَّاس الدَّرهم والدِّينار، وأهلك النَّساء الأحمران (الذهب والحرير)" [1].

وفى الصحيحين عن عمرو بن عوف رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنَّه قال: « والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخاف أنْ تُبسط عليكم الدُّنيا كما بسطت على مَنْ كان قبلكم، فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها، وتهلككم كما أهلكتهم» [2]، فجعل الدُّنيا المبسوطة هي المهلكة لهم، وذلك بسبب حبها، والحرص عليها، والمنافسة فيها، وإن كانت مفعولاً بها لا اختيار لها، فهكذا المدعو المعبود من دون الله، الذي لم يأمر بعبادة نفسه، إمَّا لكونه جماداً، وإمَّا لكونه عبداً مطيعاً لله من الملائكة، والأنبياء، والصالحين من الإنس والجن، فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر، لكن هو السبب في دعاء الدَّاعي له وعبادته إيَّاه، وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره، فهذا

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية- ج15/ص269
(2) صحيح البخاري- باب بدء الوحي-ج4/ص 1473- رقم:4015

الضّر المضاف إليه غير الضّر المنفى عنه، فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدُّنيا والآخرة، وإن كان عذاب الآخرة أشدّ.

فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدُّنيا ما جعله الله عبرة لأولى الأبصار، قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴾ [هود:100-101] فبيَّن أنهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلاَّ شراً"[1].

وزاد ابن عاشور من مظاهر الضَّرر المضاف إلى المعبودات الباطلة في الدُّنيا: "ضرره بالتوجُّه عند الاضطرار إليها، فيضيع زمنه في تطلب ما لا يحصل"[2].

ولخّص الألوسي ذلك بعبارة رشيقة فقال: " الضّر المنفي ما يكون بطريق المباشرة، والمثبت ما يكون بطريق التسبُّب، والنَّفع المنفي هو الواقعي، والمثبت هو التوقُّعي، قيل: ولهذا الإثبات عبَّر بـ (من)، فإنَّ الضّر والنَّفع من شأنهما أن يصدرا عن العقلاء"[3].

وقال ابن جزي في تفسيره: " قوله ﴿ **يَدْعُو لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ** ﴾ فيها إشكالان: الأول في المعنى، وهو كونه وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع، ثم وصفها بأن ضرّها أقر من نفعها، فنفى الضرّ ثم أثبته، فالجواب: أنّ الضر المنفي أولاً يراد به ما يكون من فعلها وهي لا تفعل شيئاً، والضر الثاني: يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره "[4].

وتسآلوا في قوله ﴿ **لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ** ﴾ ما وجه هذه اللام، إذ الأصل: (يدعو من ضره)؟ اختلفوا فيه على عدة أجوبة منها:

[1] " اللام في قوله (لمن) لام الابتداء، وهي تفيد تأكيد مضمون الجملة الواقعة بعدها، فلام الابتداء تفيد مفاد (إن) من التأكيد، وقدمت من تأخير، إذ حقها أن

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية- ج15/ص269، وراجع: معالم التنزيل- ج5/ ص 365
(2) التحرير والتنوير- ج 17/ص157
(3) روح المعاني- ج17/ص125
(4) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي - ج1 / ص1117

تدخل على صلة من الموصولة، والأصل: يدعو من لضره أقرب من نفعه "[1].

[2] جاء في معالم التنزيل للبغوي قوله: " وقيل: ﴿ **لَمَنْ ضَرُّهُ** ﴾ ما وجه هذه اللام؟ اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هي صلة، مجازها: يدعو من ضره أقرب، وكذلك قرأها ابن مسعود ، أي إلى الذي ضره أقرب من نفعه، و ﴿ **يَدْعُو** ﴾ بمعنى: يقول، والخبر محذوف، أي يقول لمن ضره أقرب من نفعه: هو إله، وقيل هي على التوكيد، معناه: يدعو والله لمن ضره أقرب من نفعه " [2].

[3] " وقيل: هي لام الابتداء، و ﴿**مِنْ**﴾ مبتدأ، و ﴿ **ضَرُّهُ أَقْرَبُ** ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة صلة له، وقوله تعالى: ﴿ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ جواب قَسَم مقدر، واللام فيه جوابية، وجملة القَسَم وجوابه خبر ﴿**مِنْ**﴾، أي يقوم الكافر يوم القيامة برفع صوت وصراخ حين يرى تضرُّره بمعبوده، ودخوله النار بسببه، ولا يرى منه أثراً مما كان يتوقَّعه منه من النَّفع، لمن ضره أقرب تحقُّقاً من نفعه: والله لبئس الذي يتخذ ناصراً، ولبئس الذي يعاشر، ويخالط، فكيف بما هو ضرر محض عار النَّفع بالكلية؟ وفي هذا من المبالغة في تقبيح حال الصنم والإمعان في ذمه ما لا يخفى، وهو سرّ إيثار ﴿**مِنْ**﴾ على (ما)، وإيراد صيغة التفضيل. وهذا الوجه من الإعراب اختاره السجاوندي، والمعنى عليه مما لا إشكال فيه،"[3].

ومن مشكلات الفهم العامة في تفسير الآيات القرآنية، واختلاف المفسرين فيها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:73]،قال فيها السمين الحلبي في كتابه الدر المصون في علم الكتاب المكنون: " وهذا استثناءٌ مفرغ، وقال أبو البقاء: ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أنه استثناءٌ مِمَّا قبلَه، والتقديرُ: ولا تُقِرُّوا إلا لِمَنْ تَبع، فعلى هذا اللامُ غيرُ زائدةٍ، ويجوزُ أَنْ تكونَ زائدةً، ويكون محمولاً على المعنى أي: اجْحَدُوا كلَّ أحدٍ مَنْ تَبِعَ، والثاني: أنَّ النيةَ به التأخيرُ والتقديرُ: ولا تُصَدِّقوا أنْ يؤتَى أحَدٌ مثلَ ما أُوتيتم إلا مَنْ تَبِع دينَكم،فاللامُ على هذا زائدَةٌ، و(مَنْ) في موضِعِ نصبٍ على الاستثناء من (**أَحَدٌ**)" [4].

(1) التحرير والتنوير-ج1/ص2764
(2) معالم التنزيل - للبغوي-ج5/ص369
(3) روح المعاني، ج17/ص125
(4) الدر المصون في علم الكتاب المكنون - ج1/ص831

ويواصل الحلبي سرد أقوال العلماء في الآية، فيقول: " وقال الفارسي: الإيمانُ لا يتعدَّى إلى مفعولين فلا يتعلَّقُ أيضاً بجارَّيْن، وقد تُعَلَّق بالجارّ المحذوفِ مِنْ قولِهِ: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ فلا يتعلَّقُ باللامِ في قوله: ﴿لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ إلا أَنْ يُحمل الإيمانُ على معناه، فيتعدَّى إلى مفعولين، ويكونُ المعنى: ولا تُقِرُّوا بأَنْ يُؤْتَى أحدٌ مثلَ ما أُوتيتم إلا لمَنْ تَبِعَ دينكم كما تقولُ: أَقْرَرْتُ لزيدٍ بألف، فتكونُ اللامُ متعلقةً بالمعنى، ولا تكونُ زائدةً على حدِّ قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: 72] ، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43]، قلت: فهذا تصريحٌ من أبي علي- الفارسي- بأنه ضُمِّنَ آمَنَ معنى أَقَرَّ، قوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ﴾"[1]، ثم واصل حديثه حول الآية متتبعاً أقوال العلماء فيها، إلى أن قال: " اعلم أنَّ في هذه الآية كلاماً كثيراً، وقال الواحدي: وهذه الآية من مشكلات القرآن وأصعبهِ تفسيراً، ولقد تدبَّرْتُ أقوال أهل التفسير والمعاني في هذه الآية، فلم أَجِدْ قولاً يَطَّرِدُ في هذه الآية من أولِها إلى آخِرها مع بيان المعنى وصحة النظم"[2].

هذه الآيات السالفة من الآيات المشكلات في فهمها، وتحتاج لبيان المقصود منها إلى بعض التوجيه - كما ذكر كثير من المفسرين- ، قصدت بيانها واتجاهات المفسرين في توجيهها للوقوف على دلالات فهم النصوص القرآنية عند المفسرين وتوجيهاتهم لها.

المطلب الثاني: توجيه التقديم والتأخير:

ومن مشكلات فهم الآيات القرآنية تقديم بعض الألفاظ والكلمات على بعض في حين أنّ الفهم الأقرب يكون عكس ما جاءت به الآية القرآنية، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: 3]: عطف قوله سبحانه ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ على ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ وفي هذا الترتيب إشكالٌ، إذ تمَّ توسيط ﴿ثُمَّ﴾ بينهما، مع أنَّ الاستغفار علامة التوبة، فكيف يتوب بعد الاستغفار؟.

وكان توجيه ذلك بالتالي:

---

(1) الدر المصون في علم الكتاب المكنون - ج1/ص831

(2) نفس المرجع - ج1/ص835

[1] قال الشوكاني في فتح القدير: " وقدم الإرشاد إلى الاستغفار على التوبة، لكونه وسيلة إليها، وقيل: إن التوبة من متممات الاستغفار، وقيل معنى ﴿**اسْتَغْفِرُوا**﴾: توبوا، ومعنى ﴿**تُوبُوا**﴾: أخلصوا التوبة واستقيموا عليها، وقيل: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا من لاحقها، وقيل: استغفروا من الشرك، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، قال الفراء: ﴿**ثُمَّ**﴾ هاهنا بمعنى الواو: أي وتوبوا إليه، والعطف تفسيري، لأن الاستغفار هو: التوبة، والتوبة هي: الاستغفار، وقيل: إنما قدّم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي: السبب إليها، وما كان آخراً في الحصول، كان أوّلاً في الطلب، وقيل: استغفروا في الصغائر، وتوبوا إليه في الكبائر "[1].

[2] وجاء في المحرر الوجيز قوله: " معنى الآية: استغفروا ربكم أي اطلبوا مغفرته لكم، وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، ثم توبوا من الكفر، أي انسلخوا منه، واندموا على سالفه، و ﴿ **ثُمَّ** ﴾ مرتبة لأنّ الكافر أول ما ينيب فإنه في طلب مغفرة ربه، فإذا تاب وتجرد من الكفر تمّ إيمانه "[2].

[3] " وقيل فيه وجهان أحدهما: استغفروه من سالف ذنوبكم، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم، كما قال بعض العلماء: الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذّابين" [3]. الثاني: أنه قدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هي الغرض المطلوب والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أولٌ في الطلب وآخر في السبب، وأورد ابن حيان الأندلسي في هذا المعنى القصة الآتية: " سمع عليّ أعرابياً يقول: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، فقال: يا هذا إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين، قال: وما التوبة؟ قال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وعلى الفرائض الإعادة، ورد المظالم واستحلال الخصوم، وأن يعزم على أن لا يعود، وأن تدئب[4] نفسك في طاعة الله كما أدأبتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي" [5].

[4] وفي زاد المسير في علم التفسير:" أنّ الاستغفار والتوبة هاهنا من الشرك،

---

(1) فتح القدير للشوكاني - ج3 /ص 424

(2) المحرر الوجيز - ج3 /ص 397

(3) النكت والعيون - ج2/ص456

(4) أصلها: "دأب فلان في عمله، أي جدَّ وتعِب، دأباً ودُؤوباً، فهو دائبُ. وأَدْأَبْتُهُ أنا. والدائبانِ: الليلُ والنهارُ.والدَّأْبُ: العادةُ والشَّأْنُ، وأدأب العمل وغيره: أدامه، والدَّأْبُ العادَة والمُلازَمَة يقال ما زال ذلك دِينَكَ ودَأْبَكَ ودَيْدَنَكَ:(الصحاح في اللغة -ج1/ص 194)، (المعجم الوسيط - ج1/ص 267)، (لسان العرب-ج1 /ص 368)

(5) البحر المحيط - ج10/ص214

قاله مقاتل"[1].

[5] وَرَجَّحَ الآلوسي: " أنَّ أصل معنى الاستغفار: طلب الغفر، أي الستر، ومعنى التوبة: الرجوع، ويُطلق الأول على طلب ستر الذَّنب من الله تعالى والعفو عنه، والثاني على النَّدم عليه مع العزم على عدم العود، فلا اتحاد بينهما ... وجاء أيضاً استعمال الأول في الثاني...والتراخي عليه يجوز أنْ يكون رتبياً، وأنْ يكون زمانياً " [2].

[6] ويمكن أنْ يقال: الاستغفار عما وقع من ذنب، والتوبة بعد أداء الطاعة، حيث كان النَّبي ﷺ يؤمر بالتوبة بعد الطاعة، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر] ، والمثال القرآني التطبيقي لهذا هو ما ورد في غزوة تبوك، إذ قال الله عن المجاهدين: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة:117]، والتوبة جاءت وصفاً عاماً للنَّبي ﷺ ومن معه، وليست قاصرة على الذين تردّدوا في الغزو، ولذا كان النَّبي ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه بعد الصلاة، فعن ثوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال:« اللهم أنت السَّلام، ومنك السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام، قال الوليد بن مسلم: فقلت للأوزاعي:كيف الاستغفار؟ قال: تقول أستغفر الله، أستغفر الله»[3]، وصار ذلك دأبه ﷺ حتى قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» [4].

ومن مشكلات تقديم بعض الألفاظ على بعضها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، ذكر أهل العلم بالتَّفسير إشكالين يحتاجان إلى توجيه: فأول

---

(1) زاد المسير في علم التفسير - ج3/ص319

(2) روح المعاني- ج11/ص207

(3) صحيح مسلم - باب استحباب الذكر- ج2 /ص94-رقم:1362

(4) صحيح البخاري- باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة- ج8/ص83- رقم:6307

الإشكالات: لماذا بدأ بوصف التعبُّد؟ ومن الوجوه التي ذكرت في بيان علة ذلك:

[1] جاء في تفسير ابن كثير: " أنَّ ذلك بسبب كون العبودية أشرف الأوصاف التي يهفو إليها الخلق، ولذا وصف الله تعالى النَّبي ﷺ بالعبودية في أشرف المقامات، فقال: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا ﴾ [الإسراء: 1])، وقال تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [الكهف: 1]،وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ ﴾ [الجن: 19] ، "فسمَّاه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدَّعوة، وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين، حيث يقول: ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر:97-99]" [1].

وقال الصفدي في الوافي: " لّما قرأ المقرئ في بعض مجالس وعظه قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الزمر: 53] قال: شرَّفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ ، ثم أنشد:

وهان عليَّ اللّوم في جنب حبّها ** وقول الأعـادي: إنَّه لخليع
أصـم إذا نوديت باسمي وإنّني ** إذا قيل لي: يا عبدها، لسميع"[2]

وجاء في نفح الطيب " وقد قال أبو العباس المرسي في قول النبي ﷺ: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » [3]: " أي لا أفتخر بالسيادة؛ وإنَّما الفخر لي بالعبودية لله"[4].

[2] وسوغ ابن كثير للبدء بالعبودية فقال: " ومن أسباب ذلك أنَّ العبادة له هي المقصودة، والاستعانة المذكورة بعدها وسيلةٌ إليها، والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم[5].

وعند الزمخشري توجيه آخر عندما يقول: " فالعبادة وسيلة ليلبي حاجاتهم،

(1)تفسير القرآن العظيم- ابن كثير- ج1/ ص48
(2) الوافي بالوفيات- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي – ج3/ص61
(3) سنن ابن ماجة -كتاب الزهد- ج5/ص362- رقم:4308
(4) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - أحمد بن محمد المقري التلمساني- تح د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م-ج2/ص192، العجلوني،كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس- ج1/ص15.
(5) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير - ج1/ص48

فقدَّم العبادة، لأنَّ تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة إليها[1].

وثاني الإشكالات في هذا الوصف: مجيئه بالنُّون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، فإن كانت للجمع فالدَّاعي واحدٌ، وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام؟ وجاء توجيه الشوكاني للآية بقوله: " والضمير المنفصل هو: ﴿إِيَّا﴾ وما يلحقه من الكاف، هي حروف لبيان الخطاب، والغيبة، والتكلم، لا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما، ولا تزاحم بين المقتضيات، والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك، ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع، والتذلل"[2].

وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: " وقدم المفعول على الفعل اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم، ويذكر أن أعرابياً سبّ آخر فأعرضَ المسبوبُ عنهُ، فقال له السابُّ: (إياك أعني) فقال الآخر: (وعنكَ أُعرِضُ) فقدَّما الأهم "[3].

المطلب الثالث: توجيه احتمال الكلام لأكثر من معنى:

ذكرنا في مقدمة هذا المبحث أنّ من معاني التوجيه احتمال الكلام لأكثر من معنى، فنذكر هنا نماذج لتوجيه المفسرين لهذه الاحتمالات، ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف:23]، ضمير ﴿إِنَّهُۥ﴾ يجوز أنْ يعود إلى اسم الجلالة، ويكون ﴿رَبِّيٓ﴾ بمعنى خالقي تولاني بلطفه فلا أرتكب ما حرَّمه، ويجوز أنْ يعود إلى معلوم من المقام، وهو زوجها الذي لا يرضى بأنْ يمسَّها غيره، فهو معلوم بدلالة العرف ويكون ﴿رَبِّيٓ﴾ بمعنى سيدي ومالكي، أي سيدي الذي ربّاني وأحسن مثواي، حيث أمركِ بقوله: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف:21]، فكيف أخونه في أهله وأجيبك إلى ما تريدين من ذلك؟، ونستمع إلى الآراء التوجيهية في ذلك:

[1] قال الماوردي:" فيه وجهان: أحدهما: إنّ الله ربي أحسن مثواي فلا

(1) الكشَّاف- ج1/ص8
(2) فتح القدير -للشوكاني - ج1 /ص 10
(3) المحرر الوجيز - ج1/ص 7

أعصيه، قاله الزجاج.

الثاني: أنّه أراد العزيز، إنّه ربي: أي سيدي، أحسن مثواي فلا أخونه قاله مجاهد والسُّدِّي"[1].

[2] وقيل: " هذا من بلاغة يوسف عليه السلام، لأنَّه أتى بمثل هذا التركيب في لغة القبط تعظيماً لحق السيّد، وإمَّا لأنَّه أتى بعذريْن لامتناعه، فحكاهما القرآن بطريقة الإيجاز والتوجيه" [2].

وعلى التأويل الثاني استُغرِبَ أنْ يكون يوسف عليه السلام ينعت سيده بهذا الوصف (الرب)، فاحتاج الأمر إلى البحث، وأيَّاً ما كان فالكلام تعليل لامتناعه، وتعريضٌ بها في خيانة عهدها، وذكر وصف الرب ليس مستغرباً على التأويل الثاني، إذ المراد بهذا التعبير أمران:

[1] تفخيم أمر سيّد البيت من قبل الخادم، فهو تعريضٌ بها بأنَّها أوْلَى أنْ تفعل ذلك، بأنْ تطيعه ولا تخون عهده.

[2] " تعليلٌ للامتناع الكائن منه ببعض الأسباب التي هي أقرب إلى فهم امرأة العزيز [3]، وأكَّد ذلك بوصفه بجملة ﴿ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ ﴾ أي: جعل آخرتي حسنى، إذ أنقذني من الهلاك أو أكرم كفالتي[4].

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ ﴾ [النساء: 46]، فهذا قول ذو وجهين: يحتمل الذمّ،كما يحتمل المدح، أمَّا احتماله الذمّ فعلى نحوين:

الأول: أنْ يكون معناه: اسمع منّا مدعواً عليك - بلا سمعت - لأنَّه لو أجيبت دعوتهم عليه لم يسمع، فكان أصم غير مسمَع، وأورد ابن أبى حاتم في تفسيره: " واسمع غير مسمع يقولون للنبي ﷺ: اسمع قوله تعالى: غير مسمع، واسمع لا سمعت "[5]، وقال الفخر الرازي في مفاتيح الغيب: " كانوا يقولون للنبي ﷺ: اسمع، ويقولون في أنفسهم: لا سمعت، فقوله: غَيْرَ مُسْمَعٍ معناه: غير سامع " [6].

والثاني: المعنى: اسمع غير مجابٍ إلى ما تدعو إليه، ومعناه: غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنَّك لم تسمع شيئاً، أو اسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، قال أبو السعود في

(1) النكت والعيون للماوردي - ج3 /ص 23
(2) التحرير والتنوير-ج12/ص46
(3) فتح القدير-ج3/ص23
(4) التحرير والتنوير-ج12/ص47
(5) تفسير ابن أبى حاتم - ج3/ص965
(6) مفاتيح الغيب- ج10/ص94

تفسيره للآية: " يُحمل على معنى اسمعْ منا غيرَ مُسمعٍ كلاماً ترضاه، كانوا يخاطبون به رسولَ الله ﷺ استهزاءً به، مظهرين إرادةَ المعنى الأخير، وهم مُضمرون في أنفسهم المعنى الأولَ، مطمئنون به، ولذلك نُهوا عنه " [1]، وقال الفخر الرازي: " وغير مسمع، أي غير مقبول منك، ولا تجاب إلى ما تدعو إليه، ومعناه غير مسمع جواباً يوافقك، فكأنك ما أسمعت شيئاً، واسمع غير مسمع كلاماً ترضاه، ومتى كان كذلك فإن الإنسان لا يسمعه لنبو سمعه عنه، فثبت بما ذكرنا أنّ هذه الكلمة محتملة للذم والمدح، فكانوا يذكرونها لغرض الشتم "[2].

وأمَّا احتماله المدح فعلى نحوين أيضاً:

الأول: " ويحتمل المدح أي: اسمع غير مسمَع مكروهاً، من قولك: أسمع فلان فلاناً إذا سبّه" [3]، وقال صاحب الدر المصون: " بإرادة المدح تقدِّرُ: (غيرَ مُسْمِعٍ مكروهاً)، فيكونُ قد حذف المفعولَ الثاني، لأنَّ الأولَ قام مقامَ الفاعلِ "[4]، وجاء في مفاتيح الغيب: " أما أنه يحتمل المدح: فهو أن يكون المراد اسمع غير مسمع مكروهاً "[5]، ومنه قول النَّبي ﷺ: « من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومن يرائي يرائي الله به» [6]، أي أي " من عَمِلَ عملاً على غير إخلاص، وإنَّما يريد أنْ يراه النَّاس ويسمعوه جوزي على ذلك، بأنْ يشهره الله ويفضحه، ويظهر ما كان يبطنه" [7]، فاستخدم التسميع في الحديث في الموضع الأول لمدح النَّفس، وفي الثاني لذمّ الفاعل بالفضيحة له.

والثاني: " أي غير مأمور بأن تسمع، في معنى قول العرب: افعل غير مأمور "[8]، وهو ما يُسمَّى عند المفسِّرين والبلاغيين بـ (الاحتراس): " وهو أنْ يكون الكلام محتملاً لشيء بعيد، فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال، ومنه: قوله تعالى: ﴿ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ﴾ [القصص: 32]، فاحترس سبحانه بقوله من غير سوء عن إمكان أنْ يدخل في ذلك البهق والبرص [9].

---

(1) تفسير أبي السعود - ج1/ص53
(2) مفاتيح الغيب- ج10/ص94
(3) البحر المحيط - ج3 /ص 662
(4) الدر المصون في علم الكتاب المكنون - ج1/ص 1129
(5) مفاتيح الغيب- ج10/ص 93
(6) صحيح البخاري- باب الرياء والسمعة - ج8/ص130-رقم:6499
(7) فتح الباري شرح صحيح البخاري- أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني تح: عبد العزيز بن باز- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/1، 1410 هـ، 1989م، ج11/ص336
(8) التحرير والتنوير - ج4/ص146
(9) البرهان في علوم القرآن - ج3/ص65

" فهذه الكلمة كانت معروفة الإطلاق بين العرب في معنى الكرامة، والتلطُّف إطلاقاً متعارفاً، ولكنهم لما قالوها للنبي ﷺ أرادوا بها معنى آخر انتحلوه لها من شيء يسمح به تركيبها الوضعي"[1].

وفي قوله تعالى عنهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾ يحتمل أربعة أوجه: اثنين لا مانع منهما، واثنين ممنوعين:

الأول: راعنا نكلمك، أي ارقبنا وانتظرنا، قال الزمخشري في الكشاف: " وكذلك قولهم راعِنا يحتمل راعنا نكلمك، أي ارقبنا وانتظرنا " [2].

والثاني: " راعنا أي أرفق بنا، والمراعاة مفاعلة مستعملة في المبالغة في الرعي على وجه الكناية الشائعة، التي ساوت الأصل، ذلك لأنَّ الرعي من لوازمه الرفق بالمرعي، وطلب الخصب له، ودفع العادية عنه، وهم يريدون ب ﴿ **رَاعِنَا** ﴾ كلمة في العبرانية تدلّ على ما تدلّ عليه كلمة الرعونة في العربية، وقد روي أنها كلمة (راعونا) وأنّ معناها: الرعونة، فلعلهم كانوا يأتون بها، يوهمون أنهم يعظمون النبي ﷺ بضمير الجماعة، ويدل لذلك أنّ الله نهى المسلمين عن متابعتهم إياهم في ذلك الاغترار فقال في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا ﴾ [البقرة:104] "[3].

فهذان المعنيان مقبولان، ولكن اليهود الذين قالوا ذلك أتوا بلفظٍ ظاهره طلب المراعاة، أي الانتظار أو الرفق، وأرادوا أحد المعنيين الآخرين المذمومين، وهما:

الأول: يحتمل أنْ تكون شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابُّون بها، تدلُّ على ما تدلُّ عليه كلمة الرعونة في العربية، كما أورد ذلك الزمخشري: " ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها، وهي: راعينا، فكانوا- سخرية بالدين وهزؤاً برسول اللَّه ﷺ - يكلمونه بكلام محتمل، ينوون به الشتيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام، فإنْ قلت: كيف جاؤوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرَّحوا وقالوا: سمعنا وعصينا؟ قلت: جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان، وليس كلهم كانوا يواجهونه بالسبِّ، ودعاء السُّوء، ويجوز أنْ يقولوه فيما

(1) راجع: الكشَّاف-ج1/ص257،المفردات في غريب القرآن- أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني- تح: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت 716، التحرير والتنوير- ج4/ص146

(2) تفسير الكشاف - ج1/ص517

(3) التحرير والتنوير - ج4/ص146

بينهم، ويجوز أنَّهم لم ينطقوا بقولهم: سمعنا وعصينا، ولكنهم لما لم يؤمنوا ويستجيبوا لِمَا دعاهم جعلوا كأنَّهم نطقوا به"[1]، وهذا القول- على ما أرى - فيه مخالفة لظاهر النَّص دون قرينة.

والثاني: كما جاء في روح المعاني: " قيل بل كانوا يشبعون كسر العين (راعينا) ويعنون - لعنهم الله تعالى - أنَّه بمنزلة خدمهم ورعاة غنمهم - وحاشاه ﷺ - وقد كانوا يقولون ذلك مظهرين الاحترام والتوقير مضمرين ما يستحقون به جهنم وبئس المصير "[2].

وفي التنزيل الحكيم عدة آيات في إيجاب مشافهته صلوات الله وسلامه عليه بالأدب ومخاطبته بالتوقير، جعله من ضرورة الإيمان ومقتضاه، وقد حض الله تعالى على خفض الصوت عنده وتعزيره وتوقيره،كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات:2].

المطلب الرابع: التوجيه باختلاف القراءة:

وتوجيه القراءات علم عظيم يدرس فيه وجه كل قراءة وسبب الاختلاف بينها وبين القراءة الأخرى، مع العناية ببيان العلاقة بين القراءات واللغة، وهو فن جليل، وبه تعرف جلالة المعاني، وجزالتها وقد اعتنى به الأئمة الأعلام والعلماء والمفسرين أيما عناية، وأفردوا فيه كتباً كثيرة وألفوا فيه مؤلفات رائعة ومفيدة، وفائدة هذا العلم كما قال الكواشي: أن يكون دليلاً على حسب المدلول عليه، أو مرجحاً، إلا أنه ينبغي التنبيه على شيء وهو أنه قد ترجح إحدى القراءتين على الأخرى ترجيحاً يكاد يسقط القراءة الأخرى، وهذا غير مرضي لأن كلتيهما متواترة، وقد حكى أبو عمر الزاهد في كتاب اليواقيت أنه قال إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أفضل إعراباً على إعراب في القرآن فإذا خرجت إلى الكلام، كلام الناس فضلت الأقوى وهو حسن[3].

وجاء في الإتقان: " وقال أبو جعفر النحاس: السلامة عند أهل الدين إذا صحت القراءتان ألا يقال إحداهما أجود لأنهما جميعاً عن النبي ﷺ ، فيأثم من قال

(1) تفسير الكشاف - ج1/ص517
(2) روح المعاني- ج3/ص46
(3) البرهان في علوم القرآن - ج1 /ص 339

ذلك وكان رؤساء الصحابة ينكرون مثل هذا "[1].

وقد عني المفسرون بتوجيه القراءات، وكان لهم فيه ضربان من التصنيف، أحدهما: أن يذكر المفسِّر توجيه ما يذكره من القراءات، من خلال علوم التفسير التي ينثرها في الآية التي يُفسِّرُها، وجرى على ذلك معظم كتب التفسير كجامع البيان للطبري، والمحرر الوجيز لابن عطية، والبحر المحيط لأبي حيان، وغيرها.

والضرب الثاني من التصنيف: أن تختص كتبٌ بهذا التوجيه، فتعرض القراءة المتواترة أو الشاذة، ويمضي المؤلف في بيان وجهها ومعناها، وما استندت إليه من قواعد العربية، وقد جرى على ذلك طائفة من كتب التوجيه، كالحجة للفارسي- هو أبو علي- ، والحجة لابن زنجلة، وغيرهما.

وعلم القراءات: كما جاء تعريفه في المهذب في القراءات العشر: " هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية، وطريق أدائها اتفاقاً واختلافاً، مع عزو كل وجه لناقله، فموضوع علم القراءات إذن، كلمات القرآن الكريم من حيث أحوال النطق بها، وكيفية أدائها "[2].

وقد جاء في الصحيحين - عن ابن عباس رضي الله عنهما- أنّ رسول الله ﷺ قال: « أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدنى حتى انتهى إلى سبعة أحرف» [3].وهناك محاولات عديدة ساقها العلماء حول مفهوم الأحرف السبعة، التي تواترت الأحاديث في إثبات أنّ القرآن نزل عليها، وأكثرها لا يستحق التعويل عليها لضعفها، ويكفينا هنا أن نشير إلى ما يستحق الذكر، ويستأهل أن ينظر إليه بعين الاعتبار، وهو ما ذكره أبو الفضل الرازي وقاربه فيه كل من ابن قتيبة وابن الجزري، وحاصله: " أنّ الأحرف السبعة هي سبعة أوجه لا يخرج عنها الاختلاف في القراءات وهى: اختلاف الأسماء من إفراد، وتثنية، وجمع، وتذكير، وتأنيث. اختلاف تصريف الأفعال من ماضي ومضارع وأمر. اختلاف وجوه الإعراب. الاختلاف بالنقص والزيادة. الاختلاف بالتقديم والتأخير. الاختلاف بالإبدال. اختلاف اللغات- أي اللهجات- كالفتح والإمالة، والتفخيم، والترقيق، والإظهار والإدغام"[4].

وبعض الناس يخلط بين القراءات والأحرف السبعة، وهناك فرق واضح وجلي

---

(1) الإتقان في علوم القرآن - ج1/ص220

(2) المهذب في القراءات العشر -ج1/ص6

(3) الجامع الصحيح- كتاب فضائل القرآن - باب أنزل القرآن على سبعة أحرف - ج4/ص 137- رقم:3219

(4) مناهل العرفان- ج1/ص 155- 157

بينهما، أثبته: أحمد سعد الخطيب [1] في كتابه المعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات، فقال: " نسبة القراءات السبع إلى الأحرف السبعة هي نسبة الخاص إلى العام، فالأحرف السبعة تشمل جميع القراءات بما فيها السبع، ومن يعتقد أن القراءات السبع هي الأحرف السبعة، فقد أبان عن جهله، وكشف النقاب عن قلة إدراكه، لأن هؤلاء القراء السبعة لم يكونوا قد ولدوا حين ذكر النبي ﷺ الأحرف السبعة "[2] .

ومن أمثلة توجيه القراءات، اختلافهم في قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة:4]، فقد جاء في بحر العلوم قوله: " قرأ نافع وابن كثير وحمزة وأبو عمرو بن العلاء وابن عامر: ملك بغير الألف، وقرأ عاصم والكسائي بالألف، فأما من قرأ بالألف قال: لأن المالك أبلغ في الوصف، لأنه يقال: مالك الدار، ومالك الدابة، ولا يقال ملك: إلا لملك من ملوك. وأما الذي قرأ: ملك بغير ألف قال: لأن الملك أبلغ في الوصف، لأنك إذا قلت: فلان ملك هذه البلدة، يكون ذلك كناية عن الولاية دون الملك، وإذا قلت فلان مالك هذه البلدة، كان ذلك عبارة عن ملك الحقيقة. وروى مالك بن دينار عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي يقرؤون ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ بالألف "[3].

وأما توجيه القراءة في قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا ﴾ [الأنعام:96] فأوجه القراءات فيها : قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿**وَجَعَلَ**﴾، وقرأ الباقون: ﴿**وَجَاعِلَ**﴾ بالألف وكسر العين، فكما ورد في النشر في القراءات العشر فإن توجيه القراءات كما يلي: " من قرأ: ﴿**وَجَعَلَ اللَّيْلَ**﴾ فهو عطف على اللّفظ والمعنى، ومن قرأ: ﴿**وَجَاعِلَ اللَّيْلَ** ﴾ فقد نصب (الشمس والقمر) بالعطف على موضع ﴿**اللَّيْلَ**﴾ لأنه في موضع نصب، وقيل: بل على تقدير: ﴿**وَجَعَلَ**﴾، ووجه الاستشهاد: انتصاب (الشمس) بإضمار فعل (جعل)، ولا يجوز النصب بإضمار وصف منون، ولا بالعطف على المحل، لأن الوصف المذكور غير عامل، لكونه بمعنى الماضي، وأما إن قدر (جاعل) على حكاية الحال، فحينئذ يجوز النصب على الوجهين السابقين، أي بإضمار وصف منون، أو بالعطف على محل الليل، لأن

(1) المعنى القرآني في ضوء اختلاف القراءات - أحمد سعد الخطيب الأستاذ المشارك بكلية التربية للبنات بجازان وأستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر- ج1/ص8.

(2) المرجع نفسه

(3) بحر العلوم-للسمرقندي-ج1/ص2

الوصف على هذا يكون عاملاً، لكونه بمعنى يجعل "[1].

ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ ﴾ [طه:63]، أجمع القراء على تشديد نون ﴿**إِنْ**﴾ إلا ابن كثير وحفصاً عن عاصم فإنهما خففاها، وأجمعوا على لفظ الألف في قوله ﴿هَٰذَٰنِ﴾ ، إلا أبا عمرو فإنه قرأها بالياء، وأجمعوا على تخفيف النون في التثنية، إلا ابن كثير فإنه شددها، فالحجة لمن شدد النون في ﴿**إِنْ**﴾ واتى بألف في ﴿**هَذَانِ**﴾ أنه احتج بخبرٍ عن ابن عباس أنّ الله تعالى أنزل هذا القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب وهذه اللفظة بلغة بلحارث بن كعب خاصة لأنهم يجعلون التثنية بالألف في كل وجه لا يقلبونها لنصب ولا خفض قال شاعرهم[2]:

إن أباها وأبا أباها * * قد بلغا في المجد غايتاها

فلما ثبتت هذه اللفظة في السواد بالألف وافقت هذه اللّغة فقرؤوا بها ولم يغيروا"[3].

ويورد بعضهم أن الأشكال في القراءة من جهة اللغة، كما قال ابن تيمية: "والإشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة، وهى قراءة جمهور القُرَّاء وهى أصح القراءات لفظاً ومعنىً، فإنَّ منشأ الإشكال أنَّ الاسم المثنى يعرب في حال النَّصب والخفض بالياء، وفى حال الرفع بالألف، وهذا متواتر من لغة العرب"[4].

والقرآن جاء بهذه اللُّغة في الكلمات المثناة كقوله تعالى: ﴿ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ [النساء: 11]، وكقوله تعالى: ﴿ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ ﴾ [يس:14]، بينما القراءة المشهورة - كما ورد -جاء فيها لفظ ﴿**هَذَانِ**﴾ بالألف، وحقُّها النَّصب فتكون بالياء، لذلك قال فيه ابن زنجلة: "وهذا الحرف في كتاب الله مشكلٌ على أهل اللُّغة، وقد كثر اختلافهم في تفسيره" [5]، فاحتاج الإعراب للتوجيه،

(1) النشر في القراءات العشر- لابن الجزري-ج2/ص251

(2) البيت منسوب لرؤبة بن العجاج- المصدر:(النحو المصفى)

(3) الحجة في القراءات السبع-الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله-دار الشروق- بيروت-ط 1401،4هـ-تح: د. عبد العال سالم مكرم-ج1/ص 242

(4) مجموع فتاوى ابن تيمية-ج15/ص248

(5) حُجَّة القراءات- عبد الرحمن بن محمد ابن زنجلة أبو زرعة- تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/ 2، 1402 هـ، 1982م، ص 454

وللمفسِّرين في توجيهها آراء بلغت السِّتّة، وأظهرها ثلاثة توجيهات:

[1] من رفع ﴿هَذَانِ﴾ حمله على لغةٍ لبني الحارث بن كعب، وخثعم، وزبيد، ومن وليهم من قبائل اليمن، ونقل ابن عساكر: " أنَّها لغة مشهورة يمانية" [1]، يأتون بالمثنى بالألف على كل حال، بل قال النَّووي: إنَّها " لغة من يجعل المثنى بالألف، سواء كان مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً، وهي لغة أربع قبائل من العرب وقد كثرت في كلام العرب"[2].

وإنَّما ورد ذلك في القرآن الكريم كما أثبته السيوطي في الدر المنثور: " أخرج عن ابن عباس أنَّه قال: الله أنزل القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب" [3]، وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي: " فنـزلت هذه الآية بلغة بني الحارث بن كعب، لأنَّهم يجعلون المثنى بالألف في كل وجه، وإنَّما صار كذلك، لأنَّ الألف أخف بنات المدّ واللين" [4].

[2] " أنْ تكون ﴿إِنّ﴾ حرف جواب مثل: نعم وأجل، وهو استعمال من استعمالات ﴿إِنّ﴾، وبلغنا عن عبد الله بن الزبير أن أعرابياً أتاه فسأله فحرمه فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك فقال ابن الزبير: إنّ وراكبها أي: أجل"[5].

[3] " التوجيه الثالث، وهو أقوى التوجيهات، أنْ هذه هي اللُّغة العامة الفصيحة في الأسماء المبهمة، فيستبعد بذلك الخطأ اللُّغوي لهذه القراءة، والضَّعف فيها، وقد ذهب ابن تيمية إلى هذا، فكلمة ﴿هَذَانِ﴾ وكل اسم مبهم بالألف هو اللُّغة الفصيحة العامة، وليس لغة القبائل الأربع المذكورة، إذ تلك تثبت المثنى مبهماً أو غير مبهم بالألف مطلقاً، أمَّا المبهم فإثباته بالألف هي اللُّغة العامة عند العرب" [6].

هذه نماذج يسيرة من اختلافات القراء والعلماء في القراءات وتوجيهها، قصدت بيانها باعتبار أنّ من ضمن اختلافات العلماء في تفسيرهم للقرآن الكريم، الاختلاف في القراءات، وإلا فالباب في ذلك واسع جداً، فإن كان من توفيق في ذلك فمن الله تعالى وهو ولي ذلك، وإن كان غير ذلك فمن نفسي والشيطان، أسأل الله تعالى القبول

(1) تاريخ دمشق، 286/48.
(2) شرح النووي- صحيح مسلم-ج3/ص1368
(3) الدر المنثور في التفسير بالمأثور- للسيوطي - ج5/ص211
(4) كتاب الجمل في النحو-أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي-تح:د.فخر الدين قباوة، ط/5، 1995م-ص157
(5)كتاب العين - ج8/ص 398
(6) انظر تفصيل ذلك في: مجموع فتاوى ابن تيمية-ج15/ص256، وراجع أيضاً:مغني اللبيب عن كتب الأعاريب-جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري-دار الفكر-بيروت-ط 6، 1985-تح:د.مازن المبارك ومحمد علي حمد الله -ج1/ص57

والتوفيق.

الخـاتـمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد المبعوث بالهدى والبيّنات، وعلى آله وصحبه والتابعين ، وبعد:

فالذي أدركه الباحث من خلال دراسته لتوجيه فهم النص القرآني أنّ مثل هذا النوع من الدراسات مما يُحتاج فيه إلى جهود كبيرة تعمل بصفة مشتركة ومقسّمة بين جمع من الباحثين ممن لديهم القدرة على دراسة مسائل منثورة لا يجمعها موضع واحد.

أولاً: النتائج:

- تبين لنا في هذا البحث أنّ الاختلاف في التفسير حقيقة واقعة لا مجال لغض الطرف عنها، وأنّ هذا الاختلاف قد يترتب عليه من المفاسد والشبهات ما يوجب تحرير القول فيه، وضبط أسبابه من أجل تفنيد هذه الشبهات ووقاية المسلمين منها.
- إنّ من الاختلاف في التفسير ما هو اختلاف بحسب الظاهر وليس اختلافاً حقيقياً بل هو من اختلاف التنوع الذي لا تعارض فيه، وهذا لا ضرر من وقوعه - بل ربما كان وقوعه مطلوباً من جهة كمال عرض المعاني وتفصيلها وتقريبها للمستمع - ولا يعني هذا أن يتحرى هذا الاختلاف، ويطلب لذاته، وإنما المعنى أن ما وقع منه اتفاقاً لا يقدح في المفسِّر كما أنه لا يقدح في المفسَّر قطعاً.
- إنّ من الاختلاف في التفسير ما هو اختلاف حقيقي، مآله إلى التعارض الذي لا يمكن التوفيق بين أفراده، وإن المتدبر في أسباب هذا الاختلاف يجد أنّ البدع والأهواء وتحكيم الرأي في النصوص، وتقديم العقل على النقل يمثل أهم أسباب هذا الاختلاف، وبالتالي فإنه اختلاف مذمومٌ من جهة الدوافع والوسائل والمآلات، وهذا النوع من الاختلاف يقدح في المفسِّر ولكنه لا يقدح في المفسَّر، بل إن نسبته إلى مراد الله تعالى من كلامه نسبةٌ مدَّعاة.
- القرآن والسنة كلاهما من الوحي المنزّل، إلا أنّ بينهما فروقاً فيما يتصل بإنزال اللّفظ، والإعجاز، وأحكام الألفاظ، وقوة الثبوت، وأنواع الدلالات، ووقوع النسخ والتخصيص.
- القرآن من حيث أصله ثابت قطعاً، لا شك في ذلك ولا ريب، غير أنّ منه قراءات متواترة، وهي القراءات العشر، وأخرى أحادية دائرة بين المشهورة والشاذة والموضوعة، وبين المتواترة والأحادية فروق من حيث ضوابطها، ودرجة ثبوتها، وجواز القراءة والإقراء بها، ودلالتها على الأحكام .

- الفرق بين الأحرف السبعة والقراءات ظاهر لا إشكال فيه عند أهل العلم، وإنّما ذكر بعضهم التفريق بينهما رداً على اعتقاد بعض الجهلة من العوام بأنهما مترادفان.
- التفريق بين متشابه القرآن، ومتشابه الأحكام متوقف على تفسير المراد بالمتشابه، وهو هنا المتشابه الحقيقي، فمتشابه القرآن مما أُمِر بالإيمان به دون طلب معناه، ومتشابه الأحكام مما أُمِر بطلبه والتفقّه فيه للعلم به.
- إنّ فهم اللّغة التي نزل بها الوحي هو السبيل الوحيد لفهم مراد الله سبحانه وتعالى، وكم من شبهات بُنيت على مغالطات لا يحلها إلا الاستعمال العربي الفصيح.

ثانياً: التوصيات:

- ظهر من خلال الدراسة انتشار الفروق في سائر العلوم الشرعية الأخرى، ولم تظهر في الساحة العلمية دراسات تهتم بها جمعاً وتوثيقاً، فحبذا لو تضافرت جهود المختصين في جمع تلك الفروق ودراستها، كلٌّ في إطار تخصّصه.
- لابدّ من دراسة منهجية متقنة، تضع في يد الدارس مفاتيح تلك العلوم التي تهيئ له سبيل الولوج إلى ساحة الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية، وحتى تؤتي تلك الدراسة أكلها، لابد أن تعتمد على البحث المستقصي الذي يقوده الأستاذ المتقن والموجّه المجيد، والناقد البصير، في ظل من تقوى الله وابتغاء الأجر منه.
- لابدّ من فهم جزئيات الشريعة في ضوء تلك الكليات ونحوها، ومن لم يُحِط بكليات الشريعة، ويفهم مقاصدها، ويدرك قواعدها، فإنه لن يستطيع أن يرد الفروع إلى الأصول والجزئيات إلى الكليات.
- أقترح على الإخوة الأفاضل بكلية الآداب سايس أن يتبنوا تكوين جسم علمي يعنى بالدراسات القرآنية والتوفيق بينها والدراسات المشابهة لها، وليكن تجمع الإخوة بهذه الندوة نواة لتأسيس هذا القسم